جامعة عين شمس
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

المَقَامَاتُ: البِنْيَةُ وَالنَّسَقُ الثَّقَافِيُّ

" مَقَامَاتُ الْحَرِيْرِي " نَمُوْذَجًا

بحثٌ مقدّمٌ لنيلِ درجةِ دكتوراه الأدبِ العربيّ

إعداد الباحث

علي عبد النّبي إبراهيم محمّد

إشراف

الأستاذ الدكتورمحمّد يونس عبد العال

أستاذ الأدب العربي بجامعة عين شمس

والأستاذ الدكتور عبد النّاصر حسن محمّد

أستاذ الأدب والنّقد بجامعة عين شمس

المحتويات

إهداء I
شكر وتقدير II
ملخص الدّراسة III
المحتويات V
المقدّمة ٤
تمهيد: ١٢
أدبيّة النّصّ السّرديّ القديم: ١٢
١-دراسة المقامات من الهامش إلى المركز: ١٦
أولاً: المظهر التّاريخي: ١٧
الموقف الأول: ١٧
الموقف الثاني: ١٨
ثانيًا: المظهر التعبيري: ١٩
٢-مقامات الحريري (النّصّ والتّلقّي): ٢١
مدخل: ٢١
تلقي مقامات الحريري: ٢٢
أوّلاً: التّلقّي الانبهاريّ: ٢٢
ثانيًا: التّلقّي الإقصائي: ٢٤
ثالثًا: التّلقّي المحاكي: ٢٦
الْبَابُ الأَوَّلُ: " البِنْيَةُ اوَالنَّسَقُ الثَّقَافِيُّ – دِرَاسَةٌ مَعْرِفِيَّةٌ " ٢٩
الفَصْلُ الأَوَّلُ: البِنْيَةُ وَالنَّسَقُ الثَّقَافِيُّ: مَفْهُومُهُمَا وَعَلاقَتُهُمَا بِالمَقَامَاتِ ٣٠
وظائف الراوي: ٤٣
الباب الأوّل الفصل الثّاني: ٦٢
المَقَامَةُ بِوَصْفِهَا مَادَّةً ثَقَافِيَّةً فِيْ التُّرَاثِ العَرَبِيِّ القَدِيْمِ: مَدْخَلٌ تَأْصِيْلِيٌّ ٦٢
موقف الجاحظ من النّثر ٦٧
أولا: الشّفاهيّة: ٧٣
ثانيا: الخبر والإسناد: ٧٧
المقامات نصّ ثقافي: ٨٣
الأنساق الثّقافيّة الّتي تطرحها مقامات الحريري: ٨٧
١- كسر تابو الثّنائيات: ٨٧

٢- ما ترك السّابق للاحق من شيء!: ٨٨
٣- فحولة البيان: ٩١
٤- سلطة النّموذج: ٩٤
٥-سلطة الأديب: ٩٥
المقامة والجنس الأدبي: ٩٦
البَابُ الثَّانِي ٩٧
مَقَامَاتُ الحَرِيْرِيِّ بِوَصْفِهَا دَالاً ٩٧
الفَصْلُ الأَوَّلُ ٩٨
بِنْيَةُ المَقَامَةِ عِنْدَ الحَرِيْرِيّ ٩٨
الإطار السّرديّ: مدخل ٩٩
-الاستهلال: ١٠١
-بنية الاستهلال في المقامات: ١٠١
المتن الحكائي والمبنى الحكائي (الخطاب) في مقامات الحريري: ١١٧
ثنائية الرّاوي والمروي عليه: ١٢٣
أركان الخطاب السّردي الرئيسة في مقامات الحريري: ١٣٢
جدليّة العلاقة بين الرّاوي والمروي عليه والمتلقّي: ١٣٦
١- الرّاوي والمروي عليه في المقامات : ١٣٨
٢- المؤلف والرّاوي والمتلقي: ١٤٢
٣-أنواع الرواة وصفاتهم في مقامات الحريري: ١٤٦
مستويات السّرد في مقامات الحريري: ١٤٦
المروي عليه في مقامات الحريري: ١٥٢
التبئير Focalization : ١٥٨
البنية الفاعلية (الشّخصيّات) Characters: ١٦٣
الرّاوي (الحارث بن همّام) ومهمة تنظيم فضاء المقامات: ١٨٥
١. براعة الاستهلال: ١٨٥
٢. الوصف: ١٨٦
أشكال الوصف في مقامات الحريري: ١٨٧
٣- فضاء الزّمان والمكان (الفضاء السّردي) (Space): ١٩٠
-٤ التّشويق: ١٩٧
-٥ حسن التّخلّص: ١٩٧
الزّمن في نصوص المقامات: (الزّمن السّردي) (Tense): ٢٠٠
درجة الصفر (من زمن الرّواية إلى زمن المروي): ٢٠٠
الحلقة الزّمنية الوسطى: ٢٠١

إيقاع السّرد: ٢٠٣
أوّلاً: التّرتيب: ٢٠٤
ثانيًا: الدّيمومة: ٢٠٥
البنية الشّكليّة لمقامات الحريري: ٢١٠
أولا: البنية الأمّ : ٢١٠
ثانيا: البنى الفرعيّة: ٢١١
البَابُ الثَّانِي ٢١٣
مَقَامَاتُ الحَرِيْرِيِّ بِوَصْفِهَا دَالاً ٢١٣
الفَصْلُ الثَّانِي ٢١٤
خِطَابُ الحَرِيْرِيِّ فِيْ المَقَامَاتِ ٢١٤
مدخل: ٢١٥
(النّصّ) و(الخطاب): ٢١٥
بين النّصّ والخطاب: ٢٢١
الخطاب في المقامات: ٢٢٣
أوّلاً: البنية الإيقاعيّة، ووظيفتها التّأثيريّة الحجاجيّة في خطاب المقامات: ٢٢٥
ثانيًا: وظيفة اللّغة الشّعريّة في مقامات الحريري في سياق الحجاج (الكناية والمجاز أنموذجين): ٢٣٠
المفارقة: ٢٣٩
عناصر المفارقة: ٢٤٢
المفارقة ونسق التعمية والإيهام: ٢٥٢
وظيفة التّناص الحجاجيّة والتّأثيريّة في مقامات الحريري: ٢٥٨
حجاجية التّناصّ في مقامات الحريري: ٢٦١
القسم الأوّل: التّناصّ مع حكاية دينيّة: ٢٦٤
القسم الثّاني: تناصّ مع آية قرآنية بنصّها: ٢٦٩
القسم الثّالث: تناصّ يعمد إلى تحوير في النّصّ القرآني بما يتناسب وسياق الخطاب المقامي:
..... ٢٧٢
التّناصّ مع الأحاديث النّبويّة الشّريفة: ٢٧٤
التّناصّ مع الأمثال السّائرة: ٢٧٧
الْمَقَامَاتُ وَالعُنْصُرُ المُهَيْمِنُ دِرَاسَةٌ نَصِّيَّةٌ ٢٨٢
الخاتمة ٣٥٧
قائمة المصادر والمراجع ٣٦١

المقدِّمة

حاولتْ الدّراساتُ النّقديّةُ – قديمَها وحديثَها – سبرَ أغوارِ النّصِّ الأدبيِّ، والكشفِ عن كوامنِهِ، وعوالمِهِ الّتي تتخفَّى فِيهِ، بصورةٍ تسحرُ متلقيهِ، وتجعَلُهم يتساءلونَ عن سرِّهِ الخفيِّ. وقد دُرِسَ ذلك في متونِ نصوصِها المختلفةِ.

وَقَد وَجدتُ في مقاماتِ الحريرِي، لأبي محمّدٍ القاسمِ بنِ عليٍّ بنِ محمّدٍ بنِ عثمانَ الحريري المدوّنةَ الأدبيّةَ الّتي ينبغِي أنْ أوجِّهَ إليها آلتي البحثيَّةَ.

وعلى الرّغمِ من قيمةِ هذا الكتابِ في نظرِ كثيرٍ منَ الدّارسينَ، ما تزالُ البحوثُ في شأنهِ ضئيلةً، خصوصًا عندَ النّظرِ إليهِ بوصفهِ خبرًا ثقافيًا أدبيًا، وُلدَ ضمنَ أنساقٍ مُتبَاينَةٍ، شكّلتْهُ وبَنَتْ مَتنَهُ وجوهرَهُ، وأفضتْ إلى خطاباتِهِ المتعددةِ، في ثقافةٍ تُولدُ في الخبرِ، وتَتَجَددُ بهِ وفيهِ.

وليسَ من شّكٍ في أنَّ الظّاهرةَ القصّصيّةَ، تتنزلُ ضمنَ نمطٍ مخصوصٍ منَ الكتابةِ النّثريّةِ، جرتْ عليهِ جلُّ النّصوصِ النّثريّةِ السّرديّةِ في المصادرِ الأدبيّةِ القديمةِ على نحوٍ مطّرِدٍ، عندَمَا اعتمدَتْ جملةً منَ العناصرِ، أو الثّوابتِ، الّتي كانَ من أبرزِهَا ثنائيّةُ الإسنادِ والمتنِ، ومزجُ النّثرِ والشّعرِ، والتّحوّلُ من جدٍّ إلى هزْلٍ، والجمعُ بينَ الإفادةِ والإمتاعِ، إضافةً إلى الإسهابِ والاختيارِ، وغيرِها من الخصائصِ المشتركةِ المميّزةِ للخطابِ النّثريِّ القديمِ. وفي هذا السّياقِ أُجرِيَ القَصُّ في " مقاماتِ الحريري" بطرقٍ متنوّعةٍ مستطرَفَةٍ، سأعملُ – بقدرِ الإمكانِ – على ضبطِ حدودِهَا، وتلمّسِ خصائصِهَا بالاستنادِ إلى استنطاقِ مجموعةٍ من النّصّوصِ في هذهِ المدوّنةِ.

وَلئِنْ كانتِ المقدَّمَةُ الّتي صَدَّرَ بها الحريري مقاماتِهِ مقتضبةً مختزلةً، فلقدْ تسنَّى لَهُ من خِلالِهَا أن يختصرَ أسبابَ التّأليفِ ومنهجِهِ ومقاصدِهِ، ويطرحَ قضايَا

أساسيّةً تخصُّ تطوُّرَ الكتابةِ النّثريَّةِ عصرَئذٍ. وقدْ حرصَ على نِشدَانِ الإضافةِ والتّجاوُزِ شرطًا للإبداعِ.

وَتَبَعًا لذلكَ، فإنَّ أبا محمّدٍ القاسمَ الحريريَ مهتمٌّ ضمنَ تصوّرِهِ النّظرِي في المقدّمةِ بكيفيةِ تقديمِ مقاماتِهِ وتبويبِهَا، وطريقةِ صياغتِها الصّياغةَ المؤثّرةَ في المتلقّي؛ إذْ أنشأهَا في " خمْسينَ مَقامةً تحْتَوي على جِدّ القَوْلِ وهزْلِه، ورَقيقِ اللّفْظِ وجزْلِه، وغُرَرِ البَيانِ ودُرَرِه، ومُلَحِ الأدَبِ ونوادِرِه، إلى ما وشّحْتُها بهِ من الآياتِ، ومَحاسِنِ الكِناياتِ، ورصّعْتُهُ فيها من الأمْثالِ العربيّةِ، واللّطائِفِ الأدبيّةِ، والأحاجيّ النّحْويّةِ، والفَتاوَى اللّغويّةِ، والرّسائِلِ المُبتكَرةِ، والخُطَبِ المُحَبّرةِ، والمواعِظِ المُبْكِيةِ، والأضاحيكِ المُلْهِيَةِ، ممّا أمْلَيْتُ جميعَهُ على لِسانِ أبي زيْدٍ السَّرُوجيّ، وأسْنَدْتُ رِوايتَهُ إلى الحارِثِ بنِ هَمّامٍ البِصْرِيّ.".[١]

وتتمثّلُ إشكاليّةُ البحثِ في السّؤالينِ الآتيينِ:

١. ما الجهازُ المفاهيميُ الّذي تسلّحَ بهِ الحريري في تأليفِهِ هذهِ المدوّنةَ لتكونَ مدوّنةً ثقافيّةً ؟ ولمَ التزمَ منهجًا صارمًا في تبويبِ الكتابِ، بوصفهِ خطابًا وظيفيًّا يرمِي إلى مقصدِهِ ومرادِهِ ؟
٢. ما البنيةُ الأصلُ في المقامةِ لدى الحريري ؟ وما البُنَى الفرعيّةُ الّتي تَصْدُرُ عن ذلك ؟ وما الأنساقُ العامليّةُ الّتي تَحكُمُ المقامةَ ؟ ثمَّ ما الدّلالةُ الّتي تُفرزُها تلك البُنَى ضمنَ أنساقِهَا الثّقافيّةِ؟

ولعلَّ سائلاً يسألُ: لِمَ اخترتَ مدوَّنةً منَ الثقافَةِ العربيَّةِ القديمَةِ مَوضُوعًا لدرسِكَ ؟

---

(١) مقامات الحريري، شرح أبي العباس، الشّريشي، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت، ط ٢٠٠٤م، ج١، ص ٢٩.

وأجيبُ قَائلاً: إنَّ اختياري مدوَّنةً منَ الثَّقافةِ العربيَّةِ القديمَةِ؛ إنَّمَا كانَ لأنَّ الثَّقافةَ العربيَّةَ القديمةَ تُكوِّنُ نظامًا تعددَتْ أجناسُهُ، وموضوعاتُهُ، وأساليبُهُ، واتجاهاتُهُ، لكنِ البحثُ فيهَا لا يزالُ بحاجةٍ إلى جهودٍ كبيرةٍ ينبغِي أنْ تُصرفَ في دراستِهَا، فلا غرابةَ إذَنْ أنْ يَعلَقَ همِّي بوصفِ أحدِ أنظمتِهَا (المتمثِّلَةِ في المقامةِ)، والنَّظرُ في عِللِ كونِهِ، والكشفِ عن أُسسِ بِنائِهِ.

ولعلَّ هذَا المدخَلَ يفتحُ النَّظرَ إلى دراسةِ المقامةِ ضمنَ علاقةِ المقالِ بالمقامِ، وإلى دراسَةِ خُطَّةِ المقامةِ، ووسائلِ التَّخاطُبِ فيهَا، وصلةِ القولِ بالفعلِ فيهَا، إلى البحثِ في الأبنيَةِ المجرَّدَةِ الّتِي يُمكنَ أنْ تُردَّ إليهَا موضوعاتُ المقاماتِ، وإلى الكشفِ عن قوانينِ الخِطابِ القَصَصِيِّ في المقامةِ، و تحديدِ أصولِهِ وفروعِهِ.

وبمَا أنَّ الثّقافَةَ العربيَّةَ تكادُ تكونُ ثقافةَ خبرٍ، وأنَّ المقامةَ ارتبطَتْ منذُ بداياتِهَا بالخبرِ، وتطوَّرَتْ عنهُ، وأنَّ كمًّا كبيرًا من هذَا الجنسِ يَشغَلُ مساحةً لا يستهانُ بهَا في الثَّقافَةِ العربيَّةِ، وَيعدُّ علامَةً تكشفُ عن أنساقٍ ثقافيَّةٍ تسودُ المجتمعَ العربيَّ آنذاكَ، فإنَّ إهمالَ دراستِهِ تَرَكَ فراغًا معرفيًّا ينبغِي أن ينالَ حقَّهُ من الدَّرسِ، وأن يُلتفتَ إليه بوصفِهِ أنموذَجًا تكاثرَ في الثَّقَافةِ العربيَّةِ بصورِهِ المتعددَةِ، ووظائفِهِ الخَطابيَّةِ المُتباينَةِ.

ولمَّا كانتِ المقامةُ – كغيرِهَا من النُّصُوصِ القديمَةِ – نَصًّا ثَقافيًّا كلاسيكيًّا، فإنّنِي أعتقدُ أنَّ النَّصَّ الثَّقافيَّ لا يعرفُ الاستقرارَ والجمودَ؛ لأنَّهُ يخضعُ لمنطقِ السُّؤالِ والجوابِ باستمرارٍ " النَّصُّ يجيبُ علَى [كذَا] سؤالٍ يضعُهُ المُخاطَبُ، وبتعددِ المخاطبينَ والأزمنةِ تتعددُ الأسئلةُ والأجوبةُ. وبالمقابلِ فإنَّ النَّصَّ بدورِهِ يطرحُ أسئلةً ببساطةٍ، وعلى المخاطبِ هذهِ المرَّةَ أنْ يجيبَ، يظهرُ هذَا عندمَا يتعارضُ النّصُّ معَ التَّصوراتِ المألوفةِ لدَى المخاطبينَ،

وقد يؤدِّي الأمرُ إلى إبرازِ تصوراتٍ جديدةٍ. إذن فمنطق السّؤال والجواب يفرض علينا أنْ لا نغفل علاقة التوتّر الموجودة بيننا وبين النّصّ الكلاسيكي."[١]

وإذا كانت المقامة في الدّرس العربي قد لقيت من الاهتمام والعناية عند القدماء، من حيثُ التّداولُ والتّقليدُ والمحاكاةُ؛ إلاَّ أنّهَا لَمْ تلقَ في الدِّراساتِ الحديثةِ حظًّا وافرًا من الدِّراسةِ من مداخلَ نقديَّةٍ حديثَةٍ.

لذلكَ وددتُ من خلالِ دراستِي هذهِ أنْ أَلفتَ النَّظرَ إلى قضيَّةٍ في الثَّقافةِ العربيَّةِ من أمّهاتِ القضايَا، ونحنُ في غفلةٍ عنهَا لاَ نكادُ نقعُ على المؤلفاتِ العربيَّةِ في مجالِهَا سوَى النَّزرِ اليسيرِ– وهي تنزُّلُ المقامةِ بوصفِهِ نصًّا ثقافيًّا ذَا بنيَّةٍ خاصَّةٍ، لَهُ فعلُهُ الفَنِّيُّ والتَّأثيرِيُّ الحجاجيُّ في الثّقافةِ الّتِي أنتجتْهُ، فتفَاعَلَ بهَا وفعلَ فيهَا – بحيثُ لمْ يُفصلِ القولُ في مسألةِ المقامةِ عندَ العربِ في القديمِ، ويمكنُنَا هُنَا أنْ نُذكِّرَ بأنَّ كثيرًا من النُّقَّادِ العربِ القدامَى اهتمُّوا بمَا أسموهُ البلاغةَ العليَا، وأهملُوا بلاغةَ الخِطابِ التَّداولِيِّ الوظيفيِّ، وَهِيَ منَ الأمورِ المُهمَّةِ.

وَقدْ شَغَفَ القُدامى بثنائيَّةِ الشِّعرِ والنَّثرِ عمَّا سِواهَا، وعكفُوا علَى ضبطِ الجودةِ في الشِّعرِ، والمخاطباتِ إلى وضعِ قوانينَ عامَّةٍ لهَا، لكنَّهمْ غَفَلُوا عنْ مثلِ المقامَةُ أيَّما غَفلَةٍ[٢].

وإذْ شغلنِيَ البحثُ في المقامَةِ بوصفِهَا مدوَّنَةَ ثقافيَّةً، وبنصِّ " مقاماتِ الحريريِّ " لأبي محمّدٍ القاسمِ بنِ عليِّ بنِ محمَّدِ بنِ عثمانَ البصريِّ الحريريِّ علَى

---

(١) الأدب والغرابة دراسات بنيويّة في الأدب العربي، عبد الفتّاح كيليطو، دار الطّليعة، بيروت، ط١، مايو ١٩٨٢م، ص ٤٤.

(٢) إذْ لا نجد – حسب اطّلاعي – من تعرّض لوضع قوانين الإنشاء في المقامة، مثلما فعلوا في الشّعر والنّثر الفنّي بمختلف فنونه.

وجهِ التَّحديدِ، فَإنّنِي أرجُو أنْ أتحرَّكَ من موقعِ البحثِ داخلَ دائرتَي التَّشريحِ وإعادَةِ البناءِ، علَّنِي أضيفُ للمكتبةِ العربيَّةِ مَا يَسدُّ فَراغًا فيهَا، وَيُقدِّمُ جديدًا يُؤسِّسُ لمعرفةٍ تقرأُ التُّراثَ بأداةٍ نقديَّةٍ عصريَّةٍ، معَ علمِي بأنَّنِي أخوضُ بابًا منَ البحثِ من أشقِّ الأبوابِ، وأكثرِهَا حاجَةً إلى الآلةِ النَّظريَّةِ، والقُدرَةِ علَى الصَّبرِ والأنَاةِ في التَّعامُلِ معَ نُصوصِ المدوَّنَةِ المَذْكُورَةِ.

وسبيلِي فِي ذلكَ المسعَى الملاءمةُ بينَ طبيعةِ الخطابِ النَّثريِّ القديمِ، ونظرياتِ النَّقدِ القَصصيِّ الحديثِ في حدودِ مَا يتَّسِعُ لهُ النَّصُّ ذاتُهُ، وَمَا يسمحُ بهِ المنهجُ، مُتوخِّيًا الاهتمامَ في مرحلةٍ أُولَى بمنهجِ التَّأليفِ، وحدودِ الإضافَةِ في تصوُّرِ الكتابَةِ الوظيفيَّةِ لدَى الحريرِيِّ.

وأعتقدُ أنَّ المنهجَ الصّارِمَ الّذي سارَ عليهِ الحريريِّ في تبويبِ الكتابِ – بوصفِهِ خِطابًا يُوجَّهُ إلى مجتمعٍ دينِيٍّ – يفترضُ أنْ يكونَ عن وعيٍ بهدَفِ هذَا الخطابِ، ووظيفتِهِ التّأثيريَةِ؛ وهذَا مَا يجعلُ هذَا النَّصَّ بعيدًا عنِ التَّشويشِ والتُّداخُلِ، بلْ إنَّهُ يسيرُ وَفقَ نسقٍ واحدٍ صارِمٍ، هُوَ فِطنَةُ السَّروجِيِّ وَقُدرتُهُ علَى التَّصرُّفِ بحكمةٍ في المواقِفِ المختلفَةِ.

وَأظُنُّ بأنَّ هذَا ليسَ هوَ المشكلَ الأكبرَ في هذهِ المَدوَّنَةِ، إنَّمَا المُشكلُ الّذِي يحتاجُ إلى التَّمحيصِ والدَّرسِ، هُوَ: هلْ هذَا النَّسَقُ يسيرُ علَى وتيرةٍ واحدةٍ ؟ أ هُوَ نسقٌ متَّسِقٌ ؟! أمْ هوَ نسقٌ يُفضِي إلَى أنساقٍ مُتباينَةٍ؟!

هذَا ما يجعلنِي ألجأُ إلى منهجٍ رُبَّمَا يُعدُّ مُتجاوَزًا نوعًا مَا، لكنَّهُ منَ النَّاحيَةِ المنهجيَّةِ ضروريٌّ لحلِّ هذَا الإشكالِ الّذي يثيرُهُ هذَا التَّساؤُلُ؛ لأنَّهُ يفكُّ شفرةَ هذهِ المدوَّنَةِ، الّتِي تُعدُّ للوهلةِ الأَولَى نَصًّا واحدًا ذَا وجوهٍ مُتعددَةٍ، ذلكَ هُوَ المنهجُ البُنيويُّ.

فَلَقدْ تَوفَّرَ المنهجُ البنيويُّ علَى جملةِ خصائصَ ومزايَا، جعلتْ منهُ أهلاً للاستخدامِ في مستوياتٍ إجرائيَةٍ متعددةٍ ومتباينَةٍ من حيثُ: الجنسُ الأدبيُّ والنَّوعُ والزَّمنُ والموضوعاتُ، بِحُكمِ مَا تتوافرُ عليهِ مستوياتُهُ التَّحليليَةُ منْ أبعادٍ لهَا إمكانيَةُ الإحاطَةِ والتَّعمُّقِ في جوهرِ العمليَةِ الأدبيَةِ، مبتدِئَةً بالهيكلِ المبنِيِّ عليهِ النَّصُّ. انطلاقًا من فلسفةٍ صدرَتْ عنهَا الدراساتُ البنيويَّةُ، هذهِ الفلسفةُ ترَى أن تكوينَ صورةٍ كُليَّةٍ عن نصٍّ أدبيٍّ مَا، وتحديدِ أفقِهِ الدَّلاليِّ أو الرمزيِّ أو الإشاريِّ، لا تُؤتِي أُكُلَها إلا إذَا ابتدأَت من الكيفيةِ الّتِي بُنِي بهَا الشَّكلُ الأدبيُّ والمكوناتُ البنائيةُ الأساسُ الّتي أقامتْ للنّصِّ – بفضلٍ منهَا – هيئةً مخصوصةً.

ومنْ وجهةِ نظرِ رولان بارت، فإنَّ البنيويَّةُ تمثِّلُ عمليَّةً ذاتَ جُزءينِ، الجزءُ الأوَّلُ هوَ العزلُ أو التَّشريحُ (dissection)، والآخرُ هوَ إعادةُ التّنظيمِ أو الرَّبْطِ (articulation)[١].

وقدْ استَعنْتُ بالبنيويَّةِ بوصفهَا منهجًا، يكشفُ عنِ الأبنيَةِ المُتضمَّنَةِ في النُّصوصِ، " فملاءمةُ النَّسقِ البنيويِّ لنقدِ النَّصِّ العربِيِّ التُّراثِيِّ ليستْ مسألةً عشوائيَّةً؛ إذ يختلفُ هذَا المنهجُ عن المناهجِ الحديثَةِ في الغربِ في أنَّ مصادرَهُ كانتْ مستمدَّةً من مجالاتٍ تناوَلَتْ نُصوصًا وموادَّ خارجَ نطاقِ التُّراثِ الأدبيِّ الغربيِّ التقليديِّ أو العريقِ. وإذَا نظرنَا إلى الأصولِ الّتِي يعتمدُ عليهَا هذَا المنهجُ أساسًا نجدُ أنَّها تتمثَّلُ في الألسنيَّةِ، وفي دراسَةِ الأدبِ الشَّعبِيِّ والأساطيرِ، كمَا أنَّها تشتمِلُ علَى أثنوجرافيَا الحضارات غيرِ الغربيَّة، ويستطيعُ المرءُ أنْ يقولَ تقريبًا: إنَّ البنيويَّةَ قد تشكَّلَتْ من خلالِ احتكاكِ التُّراثِ العلميِّ الغربيِّ العريقِ بمظاهرَ حضاريَّةٍ أوْ ثقافيَّةٍ خارجَ هذَا التُّراثِ، وبجانبِ هذَا فإنَّ البنيويَّةَ تبدُو كذلكَ

---

(١) انظر: لوبومير دوليزل وآخرون، البنيويّة والتّفكيك: مداخل نقديّة، ترجمة: حسام نايل، أزمنة للنّشر والتّوزيع، عمّان، ط ١، ٢٠٠٧م،، ص ٦٨.

من بينِ كلِّ المدارِسِ النَّقديَّةِ الغَربيَّةِ أنَّهَا المدرسةُ الّتِي تتَّفِقُ بشكلٍ أكثرَ ملاءمةً معَ دراسةِ الأدبِ العربيِّ الكلاسيكِيِّ."[١]

واستكمالاً لحالةِ الرَّبطِ، وبنائِهَا علَى منهجٍ أكثرَ صرامةً سألجأُ إلى توظيفِ مقولاتِ النَّقدِ الثَّقافِيِّ لتفسيرِ الظَّواهرِ الّتِي تكشفُ عنهَا عملياتُ التَّشريحِ والرَّبطِ؛ وُصولاً إلى القواعدِ الّتِي تحكمُ تقاليدَ الكتابَةِ في ذلكَ العصرِ في إطارِ مرجعيَّتِهَا وأنساقِهَا الثّقافيَّةِ السَّائدةِ.

وَقَدْ جعلتُ هذا البحثّ في بابين:

البابَ الأوَّلَ: وعنونتُه بـ " البنيةِ والنَّسقِ الثَّقافِيِّ – دراسةٌ معرفيَّةٌ "

و يتناولُ هذَا البابُ الإطارَ النَّظريَّ للبحثِ، وينقَسِمُ فصلينِ هُمَا:

الفصلُ الأوَّلُ: البنيةُ والنَّسقُ الثَّقافِيُّ، وعلاقَتُهُمَا بمقاماتِ الحريريِّ.

الفصلُ الثَّانِي: مقاماتُ الحريريَّ بوصفِهَا مادةً ثقافيَّةً.

أمّا البابُ الثَّانِي: فعنونتُهُ بـ" مقاماتِ الحريريِّ بوصفِهَا دَالاً "

وينقسِمُ هذا البابُ فصلينِ، هُمَا:

الفصلُ الأوَّلُ: ويتناولُ البنيةَ الشّكليَّةَ للمقاماتِ عندَ الحريرِيِّ منْ حيثُ بنيتُهَا الأصليَّةُ، والبِنَى الفرعيَّةُ الّتِي تحكُمُ السَّردَ عندَهُ.

أمَّا الفصلُ الثَّانِي: فيتناولُ الخطابَ في مقاماتِ الحريريِّ من حيثُ خصائصُهُ، ووظائفُهُ الحجاجيَّةُ والتَّداوليَّةُ، وَفقَ أنساقٍ ثقافيَةٍ سائدَةٍ، أو أنساقٍ ثقافيَّةٍ مُضادَّةٍ.

([١]) بناء النّصّ التراثي، فدوى مالطي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ط ١٩٨٥م، ص ١٣.

ثُمَّ ختمتُ البابَ الثَّانِي بدراسةٍ نصيَّةٍ تحليليَّةٍ لثلاثةِ نُصوصٍ من مقاماتِ الحريريِّ، ممثّلةٍ لبنيَةِ العنصرِ المُهيمِنِ في المقاماتِ كلٍّ علَى حِدَةٍ.

واللهَ أسألُ أنْ تكونَ هذهِ الدِّراسَةُ قَدَّمَت إسهَامًا يسيرًا لحضارتِنَا وتُراثِنَا وحاضرِنَا الثَّقَافِيِّ والنَّقدِيِّ.

واللهُ من وراءِ القَصدِ

الباحثُ

تمهيدٌ:

أدبيّة النّصّ السّرديّ القديم:

شهدَتْ دراساتُ السّردِ العربيّةُ خلالَ العقدينِ الأخيرينِ منَ القرنِ الماضي اتساعًا ملحوظًا، تعددَتْ خلالَهُ سبلُ معاينةِ النّصِّ السّرديّ، وتباينتْ منطلقاتُهَا، والأهدافُ المؤمّلَةُ منها، مثلمَا تباينتْ إجراءاتُ البحثِ فيهَا، وهيَ تسعى للكشفِ عن بنياتِ النّصِّ الداخليّةِ وملاحظةِ عناصرِهِ، في محاولةٍ لاختبارِ فعاليةِ إسهامِهَا في إنتاجِ النّصِّ، والوقوفِ على شخصيتِهِ المميّزَةِ، الّتي بقيتْ لعقودٍ طويلةٍ ماضيةٍ أسيرةَ معاينةٍ خارجيةٍ، عملتْ في أعلى مراحلِهَا على فهمِ النّصِّ الأدبيِّ بوصفهِ نتاجَ ضفيرةٍ منَ المشكلاتِ: تاريخيةً ونفسيةً واجتماعيةً. وربَّمَا عُدَّ في بعضٍ منها نتاجُ مشكلةٍ منفردةٍ، هي منظومةُ مؤثراتٍ يُشكِّلُهَا ميدانٌ معرفيٌ واحدٌ من ميادينِ الحياةِ، وقدْ خَضَعَتْ اللغةُ – لغةَ النّصِّ الأدبي – خلالَ تلكَ الدراساتِ لإرادةِ البحثِ، وسلطةِ منهجِهِ، فبدتْ في كثيرٍ منهَا مطواعةً ليّنةً، تلبسُ مع كلِّ دراسةٍ خصائصَ منهجِهَا، وتتسمُ بسماتِهِ بمَا يكشفُ – بنظرةٍ شاملةٍ ومن غيرِ تعميمٍ – عن خطورةِ هذا العنصرِ، وهو يُجلِّي النّصَّ الأدبيَ ويوجِّهُ – بدرجةٍ مَا – قراءتَهُ؛ لتتخذَ في كلِّ مرَّةٍ وجهةً، يؤْكَدُ فيهَا حضورُ وظيفةٍ واحدةٍ للغةٍ أكثرَ من سِواهَا(١).

وَقدْ سعَتْ الدراساتُ السّرديّةُ – في طموحِهَا للإسهامِ بإنتاجِ نظرةٍ معرفيةٍ تتأسسُ على ما تقيمُهُ مع سِواهَا من أسبابِ التلازُمِ والحوارِ – إلى إقامةِ نمطٍ خاصٍّ منَ العلاقةِ معَ (التراثِ) مستجيبةً لحاجةٍ أساسيةٍ في ميدانِ البحثِ، ومعبرةً عن ضرورةِ وعيِ أنموذجِ الأمةِ الحضاري عبرَ مختلفِ تجلياتِهِ خلالَ لحظاتِهِ الزّمنيةِ المتباينةِ، وتنقسمُ – من جهةِ علاقتِهَا بنصوصِ السّردِ العربيِّ

---

(١) انظر: رامان سلدن، النظرية الأدبيّة المعاصرة، ترجمة: سعيد الغانمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٦م، ص ١٠.

القديمِ – قسمينِ أساسيينِ:

توجَّـهَ الأولُ لمعاينـةِ تلـكَ النّـصوصِ واسـتجلاءِ خصائـصِهَا؛ للوقـوفِ علـى قُدُراتِ الموروثِ السّرديِّ العربيِّ وكنوزِهِ الكامنـةِ، واتّجهَ الآخرُ تُجاه تأصيلِ النّصِّ السّرديِّ العربـيِّ الحديثِ – الروائي منـهُ على نحوٍ خاصٍّ– في رغبـةٍ للبحثِ عن موقعٍ عربـيٍّ لروايةٍ عربيّةٍ.

وإذَا كانَ القسمانِ يتفقانِ– إلى حدٍ مَا – في فهمِ العمليّةِ السّرديّةِ، فإنَّ اتّفاقَهُمَا لا يمتدُّ إلـى موقفيْهِمَا منَ التُّراثِ – حقلِ عملِهِمَا المشتركِ – مثلمَا لا يمتدُّ إلـى تعـاطي إجـراءاتِ الـسّردِ الّتـي يقتـضيهَا– بالـضرورةِ – موقفاهُمَـا، وهمَـا يجـسّدانِ إشكاليةَ الدراسـةِ عبرَ الفجوةِ الحاصلةِ بينَ توجيهِيْهُمَا لمعالجـةِ نصِّ السّردِ العربـيِّ القديمِ منفردًا، أو في ضوءِ ما تقدّمُهُ نصوصُ السّردِ العربـيِّ الحديثِ من معطياتِ صلةٍ معَهُ؛ لتتغيرَ تبعًا لذلكَ سبلُ الكشفِ عن السّردِ القديمِ من كونِهِ مركزَ معاينـةٍ وفحصٍ إلى كونِهِ رديفَ إسنادٍ – مسندًا إليه على الدوام – تتجلَّى ملامحُهُ على مرآةِ النّصِّ الرّاهنِ، وتُضاءُ قيمُ وجودِهِ بمَا يمدُّ الأخيرَ من القوةِ والخصوصيةِ.

إنَّ دعوى حداثـةِ النموذجِ الإبـداعيِّ الّذي تتكـئُ عليـهِ (الـسّرديّاتُ)، أو إنَّ أدبيّةَ السّردِ – بجملةٍ أخرى – بنتَ العصرِ الحديثِ[١]، حدَّتْ من نوعيةِ التعاملِ معَ نصوصِ السّردِ القديمِ، وأعلنتْ خشيتَهَا من مراودَتِهِ، مثلَمَا استدعَتِ المجاهرةُ بعدمِ قدرةِ أسـلافِ الـسّردِ الـسابقينَ علـى فرضِ أنمـاطِهِمُ الأوليّـةِ لفرطِ سذاجتِهَا، واختلاطِهَـا بالكتابـةِ التاريخيـةِ والتوثيقيـةِ فهمًـا مـسبّقًا لنوعيـةِ الـنّصِّ المـدروسِ، وتطلّبتْ صفاءً فـي سماتِهِ يُخلَّص معَـهُ من شـبهتَي التاريخيـةِ وَالتوثيقيـةِ، وبـذلكَ غـدتِ المعاينـةُ الـسّرديّةُ للـنصِّ القـديمِ ذاتَ صـعوبةٍ مـضاعفةٍ، وانقـسمَتْ مـشكلةُ مواجهتِهِ سرديًا إلى مشكلتينِ: نصيّةٍ ومنهجيّةٍ.

---

(١) انظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النّصّ، سلسلة عالم المعرفة (١٦٤)، الكويت ١٩٩٢م، ص٢٧٥.

إنَّ افتـراضَ وجـودِ نـصوصٍ – قديمـةٍ أو حديثـةٍ – تنطـوي علـى (أدبيّـةٍ) خالصةٍ يُجرِّدُ اللغةَ – مادةَ العملِ الأساسَ – من حيويةِ وظائفِهَا الّتي تلتقِيْ جميعًا علـى سطحِ الـنّصِّ، مثلَمَـا يجـرّدُ الـسّردَ مـن سـماتٍ أساسيّةٍ هـيَ سـعتُهُ وشـمولُهُ وتعاليـهِ علـى التـاريخِ ـ كمـا يقـولُ بـارت .[١]، ويحـددُ حركتَـهُ باتّجـاهَي النّـوعِ والعصرِ، ليغـدوَ تـاريخُ الـسّردِ بمثـلِ هـذا التـصوّرِ رصـدًا لوقـائعَ منتظمـةٍ تنتجُـها نصوصٌ معينـةٌ، بينمَا لا يبدو هذا التاريخُ في حقيقتِهِ غيرَ " توسيعٍ وتعقيدٍ وقلبٍ لقوانينَ أساسيةٍ قليلـةٍ من قوانينِ البنيـةِ الأدبيـةِ" [٢]، وهوَ مَا لاَ يُوجدُ علَـى نحـوٍ منفردٍ أوْ صافٍ يطلُّ من عليائِـهِ على النُّصوصِ والأزمانِ، إنَّـه – بعبارةٍ أخرى – صورةُ العصرِ ومزاجُهُ، وقدْ أنتجتْهُمَا شعريّةٌ خاصّـةٌ لا تنفلتُ خارجَ مدارِ زمنِهَا، ولا تترفّـعُ عن سياقاتِهَا، بلْ تشكّلُ صـيرورتَهَا بمَا تقترحُـهُ من صـلةٍ مـعَ عصورِ إنتاجِهَا، من هُنَا يكونُ الحديثُ عن (أدبيّةِ) النّصِّ السّرديِّ معقولاً إذَا ما انتظمَ ضمنَ محدداتِ العصرِ والسّياقِ، إنَّ النّصَّ يُدركُ عندئذٍ لا بكونِهِ معلّقًا في الهواءِ، بلْ بمَا يؤمِّنُهُ من كشفٍ لإمكانـاتِ لغةٍ معيّنـةٍ، وهـي تُـضاءُ مَعَ كلِّ تـآليفَ جديدةٍ بنورِ العقلِ وقدرتِهِ على التحليلِ والرّبطِ؛ لتُسهمَ الدراسةُ السّرديّةُ في سعيهَا لمعالجةِ النّصِّ القديمِ في الانفتاحِ – وفقَ مقتضياتِ النّصِّ المدروسِ وأهميةِ موقعِهِ – على مهمّـةِ إنتاجِـهِ الّتـي تـشتركُ فيهَـا روافدُ متعددةٌ، إنَّهَـا تُـنتجُ عندئذٍ معرفتَهَـا الفكريّـةَ الخاصَّـةَ، أو تـهدفُ – فـي الأقلَّ – إلى التوصّلِ إلى مثلِ تلكَ المعرفةِ[٣] من خلالِ إنتـاجِ رؤيتِهَا للنّصِّ: في رصدِ فعاليتِـهِ، وتبيّنُ موقعَـهُ، وإدراكَ أهميـةِ ما يثيرُهُ من

---

(١) رولان بارت، مدخل إلى التحليل البنيويّ للمحكيّات، ضمن كتاب (من البنيويّة إلى الشّعريّة)، ترجمة: غسّان السّيّد، دار نينوى، دمشق، سوريّة، ط١، ٢٠٠١م، ص ١٣.

(٢) والاس مارتن، نظريات السّرد الحديثة، ترجمة د. حياة جاسم محمد، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، العدد ٣٦، مصر ١٩٩٨م، ص ٦١.

(٣) انظر: رينيه ويليك، مفاهيم نقدية، ترجمة د. محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة (١١٠) الكويت ١٩٨٧م، ص١٠.